رواية الحسناء

قصب السبق

كلمة اطلقتها العرب على قصبة كانوا يضعونها في طرف ساحة السباق ومن سبق من الفرسان واختطفها يقال عنه احرز قصب السبق . ولشدة ولع العرب بسباق الخيل وضعوا اسماء لحبل السباق وهي : الجلي المصلي المرتاح العطف المؤمل اللاطيم السكيت ولاستعمال هذه العبارة رواية تاريخية واقعية تلذ اخبارها لقراء الحسناء تفكهة واثباتاً لما كان عليه سكان المضارب والخيام من طيب القلب وسمو المبدأ والاخلاص في الوعود وقد سارت بطيب ذكرهم الامثال التي لا تزال يرن صداها في وسط المجتمع الانساني وفي فضاء الحضارة والتمدن الحديث

روي انه كان في نواحي دمشق الشام في ايام بني غسان امير عشيرة شديد الولع بسباق الخيل . له ابنة تغزل بها الشعراء فكانت محجة شعرهم . وهام بها الظرفاء فكانت قطب افكارهم ونقطة آمالهم . وفوق ذلك كانت على جانب عظيم من الفروسية حتى ندر من لا يصادقها في ميدان السباق ولما كانت بيت قصيد كل ناشد او بالحري كانت لشعر الشعراء « كالحلي للسيف او كالوشي للعلم » دوى خبر وجودها في سائر الامصار . فكانت تتقاطر الامراء لقبيلة ابيها من كل صوب وناحية بغية مطابقة الخبر الخبر . ومن جملة الذين اموا حماها امير متنكر من امراء العرب الكرام الذي ما كاد ينظر الفتاة حتى اكبر وكبر واكد عجز واصفيها عما هي عليه من الخلق والخلق والفروسية

وكان من عادات تلك القبيلة ان يتأهب اهلها في ايام مخصوصة لمشاهدة سباق الفرسان . واعتاد الامير ان يتفوق الفارس السباق بجائزة سنية . ولما كانت تلك الاميرة المحكى عنها وحيدة ابويها وسليلة بيت الامراء كان منوطاً بها اتحاف محرز قصب السبق تلك الجائزة المعنية .

وفي اثناء اقامة الامير المهاجر في تلك القبيلة جرى السباق جرياً على العادة المألوفة فخرجت الفتاة وابوها الى ضواحي الخيام حيث اعدّ لها قبة مفروشة بافخر نسيج في ذلك العصر مرتفعة على اكمة تجلبية يوشاح سندسي طرزته يد الطبيعة بالوان تبهج النفس وبصنعة تجل من ابدع . والاكمة مشرفة على ميدان السباق الفسيح . وما هي الا برهة من الزمن حتى غصت الساحة بجمهور المتفرجين والميدان بجموع الفرسان . فانتصب

الامير اذ ذاك وقسم الخيالة زرافات زرافات وامر فوضعت القضبة في الطرف الآخر من الميدان واستعدت كل عصابة لوحدها تحكي الجري في مضمار السباق . فما الا كالح البصر حتى ارخت الخيالة العنان لسوابقها فاربد الافق من الغبار الطائر من تحت سنابك الجياد واتعقد فوق رؤوسهم كسدل الظلام وبعد قليل تمزق ذلك السدل الغباري وانكشف سجفه الحالك عن الفائز من تلك العصابة فازوى جانباً منتظراً نزول العصابة الثانية وفوز احدها وهكذا كلما انتهت زمرة من السباق كان يروي الفائز منها منتظراً الباقين مع من تقدمه الى ان اكتمل سباق العصابات كلها فانضم الفائزون اذ ذاك بعضهم لبعض وتهيأوا للجري معاً قصد اسفل النثيجة عن محل ينحفه ملاك (جمال) (الامير) بجائزة قصب السبق التي طالما تاقت اليها النفوس فكانت اعناقهن لنوالها من تحي لنوال الماء . وما ارجعت القضبة الى مركزها حتى انبرى الطالبون لاختطافها يجري بعضهم جري الثور اذا كر او بارادة لا تقف امامها البيض ولا السمر ولا المدمرات الحربية لو وجدت في عصرهم البدوي اذ ان بحر السباق نخر بذكر اعتباره .

وكان من جملة الشرذمة الاخيرة ذلك الامير المتنكر الذي في نفسه امر لو عارضه في نواله الصلد الاصم لفداه شطر من مجد فيصل النظر الحاد المتطاير منه شرار الحب الحقيقي السامي فكيف لو نزل عليه بساحة الحب . . . . . .

ان فعل القضاء والقدر عجيب تأثيره تحكي بني الانسان وعظيم وقوعه مصيباً عند امل المنتظر وحلو هو اصطدامه بحقيقة فكر الطالب . فلو تمثل ملكة النهار للطفل مكتسية ثوبها البهاري الا والمهاجر فائز بقصب السبق « بحلي » رافع يده القضبة ومحدق بشمس المغيب كأنه كان يقول لها فزت ايتان غروبك ايتها الشمس بالوسيلة التي تتيح لي الفوز بالذي هجرت لاجله الوطن متنكراً مشتاقاً معانياً مشاقاً مع الوجد نارات يذيبان الجماد فكيف بهما وقد التهبت اضلعهما الفعالة في جثماني وما من مناص

على سأفوز لكن بالكثير ولعله كما فزت الان عند اقبال وجه الحبشي الرهيب الساذل ستاره الحديدي الحاجب عن اعين الناس ما حسن وما فسد من اعمالهم الحيوية والبذيئة وافعالهم السامية والساقطة . في تلك الساعة ساعة الظلام فرصة وحوش بني الانسان تلك الفرصة الهائلة التي اختطوها لارتكاب اقبح الاثام والجرائم وخصوصاً في عصرنا الحالي عصر النور . بينما تكون وحوش الغاب سارحة في مهامه القفار وحزونه طلباً لقوتها تدب وحوش بني الانسان من كهوفها متدرعة بانيابها الخناجر واسنتها المسدسات بغية الافتخار بجريمة فظيعة

يقترفونها . . . . . .

اعدّ ذلك الامير الغريب صدراً رحيباً لتوال الجائزة المعنية . وتقدم بقلب لاهب حباً زاده لهباً على لهب تقرّبه من فاتنته . فاصبح قلبه في تلك الساعة كمأبقة موسى وخدناه شرارة لهيبها التي كانت تقول المكان مقدّس اعدّ لك ايتها الحبيبة انت وحدك موسى الحب . . . . . .

ايها الملاك البشر القلب المنكسر يحيران اللقاء انت وحدك تخلق من المرأة امرأة جديدة بحيث ان امرأة الغد تختلف اختلافاً تاماً عن امرأة الامس كما قال بلزاك . . . .

اقترب الامير من متيمته فالبسته الجائزة على رأسه . ونظر اليها فسقاها بعينيه الهوى العذري المشف عن شعلة الحب الحقيقي المنزه عن الافكار الدنيئة الشريرة . واول خطوة الفوز اللحاظ . فاستمال قلبها وملأه حباً كأنه نفخ فيه نسمة حب حية . فاستنتج من نظرها اليه المملوء انعطافاً وتوددهما السافر عما تكنه السرائر . اوليات رضاها . وان جوارحها بتلك النظرات المشفوعة بالتبسم الطبيعي كانت تقول كن مطمئناً فقد ملكت فيادي كما ملكت قيادك . وان الحب امرنا بقوله كونا حبيبين فكنا فانت حبيبي وانا لست لغيرك وسوف اكلل قلبك يا كليل الفوز في سباق حبي كما كللت يداي راسك يا كليل الفوز بقصب السبق على الجياد الضمر .

« واما انت ايها القاري الكريم لطيفاً كنت او نشيطاً فلا يأخذك العجب لقولي قد استحكم بهما الحب لاول نظرة وامتلكهما امتلاكاً لا مفر منه . وانت تدري وتعلم حقيقة ان القلب مهبط وحي الحب الحقيقي . وما الحب الا شعلة علوية يرسلها الله الى قلب كل انسان . بل بالحري هو كما قال « بونادوتي » الجناح الذي اعطاه الله للنفس لكي تطير به اليه . لانه افضل والطف مهذب كما قال « باكون » ويعلم كل الفضائل كما قال « بلوتارك » . والمعزي للبشرية والمحبب اليها بما قاله (روسستر) الحب نقطة علوية افرغتها السماء في كاس الحياة لتخفف مافيها من المرارة . »

وهكذا افترق عنها بعد ان جرت دمعة من كل منهما فاذكت نار تجدد اضطرامها وكانت تلك الدمعة كالمداد لاقلام المحبين لتسطير ما يوحيه لهم سامي حبهم

وفي ثاني يوم تبادل الامير واميرته الحب على انفراد مبتعدين عن الخيام خشية عين المراقب . وقد صفا لهما الجو وخلا المكان فبنا من مكنونات فؤاديهما ما برهن على شرف المبادي ثم اتفقا قبيل الافتراق على ان يطالبها من ابيها بعد ان يكشف له النقاب عن حقيقة امره ومصدر نبعته . وما ابتعدا عن بعضهما حتى عقدا بينهما عرى الاخلاص الوثيقة وأقسما الايمان المحرجة على الوفاء بالعهد عملاً بحكم الضمير الحي اس الفضائل . وامنا على حبهما الحقيقي

بالثبات و بين قلبيهما سلك مار كوني النظر المؤيد صحة ما نطقا به . ومضى كل بحال سبيله وفي نفسه شعلة حب من قبسه الحقيقي تريه الامل امل الحياة الحديثة من وراء حجب المستقبل

ذهب الامير بعد ان ترك ذلك الملاك اللطيف ملاك حبه قاصداً امير القبيلة ليطلب منه يد ابنته الاميرة المحبوبة . ذهب وفي ذهابه كان مترددا لفكر طرأ عليه وذلك الفكر اقبح من ان يذكر امام تمثال الحب الحقيقي . امير القبيلة كان اعرق نسباً من الامير الغريب . فرق واضح ينظر اليه بتدقيق الذين يعتدون بالشرف الموروث اولئك هم الذين اصبح عندهم التمويه كل شيء والحقيقة في نظرهم كلا شيء . خطر للامير ذلك الخاطر فكان مصيباً ولكن من سيطر عليه الحب وانتشر في جنباته انتشار الدماء لا يثبط عزيمته عن الاقدام فكر ولا افكار ولا يثنيه عامل من العوامل والا فهو خال من الحب وشعاره

مشى المحب ومشت معه التخيلات . والمحب الصادق ان اراد يحبك من خيوط الشمس سبباً كي يتوصل به الى آماله . وصل حيث ابو الفتاة . وبعد مبادلة الامير بين ما اقتضاه المقام من السلام الدوري والتعارف اخذا يتجاذبان اطراف الحديث حسب عادة امراء ذلك الزمان حتى افضى بالضيف الكلام الى عرض ما جاء لاجله على امير العشيرة الذي ما كان منه الا اعادة ضيفه بصفقة المغبون لذلك السبب الذي افتكر به . والذي كان لديه كحجة دامغة لرفضه الطلب . فاجفلت الفتاة لذلك الرفض المزعج وسقط اصرار ابيها على الرفض على قلبيهما سقوط المقصلة على راس المذنب فهلعا . . . .

نعم المحبة تحسر اجمل محاسنها اذا فارقها الشرف كما قال جان جاك روسو . ولكن هذا الرجل العظيم لم يعن بقوله الشرف الموروث المنتقل كالعقار من فرد الى افراد يتبجحون بالفخفخة والتمايق الذين هم اجدر بالخدمة واللؤم . اولئك الذين ينادون بالشرف ويفضلونه بالقول جهاراً وفي الخفاء يغمسونه في بحول الخنايا . كلا معاذ الله ان يكون هذا هو الشرف الذي يدافع عنه العالم ويطلب ترفعه على المحبة . تفاوت الالقاب والانساب ليس من خصائص الشرف الحقيقي ضالة نفي وفتاة اليوم المشودة . تكبر المرء وعجرفته والثروة الطائلة امور الحقيقة هي من سقط المتاع وليست من اسباب الشرف التي يهدأ لها بال الانسان المحي الباحث عن مصدر الراحة والهناء . فالمحبة والشرف صنوان لا يفترقان وسيفي لها بقية

المحبة الصادقة شرف يعظم لمعظم المحبة

حنا قصاص

طرابلس